منيرة توفيق

و«أنوار منيرة»

ـ كانت الإسكندرية.. دائماً.. وأبداً.. هي منارة العلم.. والفن.. وإشعاعات الفكر، بدءاً من «مكتبة الإسكندرية» العريقة واستمراراً بنوابغ الفكر، والفن، والموسيقى، والشعر، من سيد درويش.. إلى توفيق الحكيم.. إلى شاعرة معاصرة تشربت من عذوبة اللحن، وتشبعت بوحي الفكر.. وعمق الكلمة.. بانسياب شواطىء الإسكندرية الصاخبة، والهادرة مياهها حيناً.. والحانية الهائمة.. الناعسة.. أحياناً أخرى.

ـ هي شاعرة.. بزغ نور علمها.. ووحي إلهامها.. في زمن.. لم يغفل عنه الزمان، ولم ينسه المكان، بل هي التي رأت.. وفضلت.. ألاّ تُبْرز.. وألاّ تُذْكر.. وألاّ تلمع.. شأنها في ذلك.. شأن العلماء.. والمفكرين.. والشعراء.

ـ ومن شأن اهتمامنا بهذه الشاعرة.. هو.. «الأسلوب الشعري» أو المنهج الشعري الذي سارت على دربه أشعارها، فهو الشعر الرصين.. الرفيع.. المُقفَّى، الذي لا يضاهيه ولا يقف بجانبه إلاّ عباقرة الشعر.. أمثال: شوقي.. وحافظ.. ومن قبلهما.. شاعرة شواعر العربية «الخنساء».

ـ وإنني أشبِّه شاعرتنا هذه السكندرية.. بشاعرة شواعر العربية «الخنساء»، لأن الروح الأنثوية.. الشاعرية.. تتشابك في كلتا الشاعرتين، وولوجهما.. ومعالجتهما لكل مناحي الشعر السياسي.. والوطني..

والعاطفي.. والصوفي، وشعر الرثاء.. واضح كل الوضوح.. في منهجهما الشعري، وأسلوبهما الرفيع.. المميز.. من الشعر الموزون.. والمقفّى، بلغة سلسة.. منغمة.. وبأسلوب «طه حسين» السهل الممتنع.

ـ فنجد الخنساء.. بشعرها العبقري.. وفكرها السوي.. وعاطفتها الجياشة.. تعيش في دنياها الشعرية، ما بين محنة الزمن، ومحنة الغربة، ومحنة الفراق، وعذابات الموت، بصرخات امرأة شاعرة.. تعبر تعبيراً صادقاً عما يجيش بنفسها.. وما تتألم منه نفسها، وعن وجيعتها.. وصدقها.. ومحنتها.. وعذاباتها.. في فراق أخيها «صخر»، ومرثيتها الخالدة التي تنبع من قلب تفتت وذاب حزناً وألماً على «صخر»، وكيف أكلها الحزن.. ودمرها.. وفجّر شاعريتها؟! وهي في ذلك تبكي مثلها الأعلى.. وليس مجرد شقيق.. تربطه بها.. منافع المادة.. وصلات القرابة:

«أعينيَّ جودا.. ولا تجمدا..

ألا تبكيان.. لصخر الفدى..؟!

ألا تبكيان الجريء الجميل..؟!

ألا تبكيان الفتى السيدا..؟!

رفيع العماد طويل النجاد..

ساد عشيرته أمردا..

إذا القوم مدوا بأيديهم..

إلى المجد مد إليها يدا»..

* * *

هذا الوفاء في الخنساء.. لأخيها «صخر»، يضاهيه تماماً وفاء الشاعرة «منيرة توفيق» في رثائها.. ووفائها.. لزوجها.. وأخيها وأختها.. فكانت مثالاً للوفاء النادر.

ولكأنما الآلام.. تجر الآلام، والأحزان تورث الأحزان، فما إن رثت زوجها.. الذي شهدت مصرعه في ليلة عيد الأضحى.. لتقول فيه:

«ما كنت آمل.. أن الدهر يفجعني..
بمن أراه على الأيام مدَّخري..
جنوا عليه وجنح الليل معتكر..
وشدة الحرص لا تنجي من القدر..

* * *

وتمضي في بث لواعج قلبها فتقول:

«يا صرخة الموت كم قطعت من كبدي..
ويا نذير الردى غاليت في الخطر..

ثم تناجيه.. وهو تحت أطباق الثرى.. فتقول:

«في الخلد.. نم مطمئناً يا لبيب.. ففي..
سواد قلبي.. وفي سمعي.. وفي بصري..

وللشقيق بكت.. وتباكت.. نعت ورثت بقلب حزين:

يا من تولى.. ولم ينعم بريعان..
خلفت لي الحزن.. فارحم..
قلبي.. العاني..
أبكي صباك.. الذي كانت نضارته..
كأنها نفحة من خلد رضوان..!

* * *

وهكذا نرى الوفاء.. في «الخنساء» والوفاء.. في «منيرة توفيق».. التي يتميز شعرها بالثراء، والدفء العاطفي، وجمال البهاء، والرواء، وتشترك المرأة في جيل بعد جيل في طبيعة الوفاء.

ـ لقد كانت الخنساء.. عاشقة للمجد.. والخنساء كانت نموذجاً لبطولات النساء.. فلم تكن الأنوثة مشغلها.. ورأس مالها.. ومناط سيرتها، ولكنها كانت عبقرية الذهن.. كريمة النفس.. تشتعل كبرياء.. وكرامة.. وعلو الهمة.. أساس بنائها.. وجوهر عناصرها.

و«الخنساء خلقت بفكرها.. موقعاً جديداً، فإنها كفَّت عن لبس الشعار.. وكشف الرأس.. وحلقه.. ولطم الوجه.. وكل مظاهر الحزن المؤسفة، إلاّ أنها لم تكف عن البكاء.. وصبرت عما سواه!.

ـ ولحظة التحول.. كانت عجيبة.. فإن «الخنساء» خرجت يوماً.. فإذا بامرأة تنوح.. فظنت أن الذي بها.. هو لها.. فبكت معها.. ثم سألتها:

ـ على أي شيء تنوحين..؟

قالت:

ـ على جرو.. هلك مني..؟!

فأصابت الكلمة «الخنساء» بصدمة هائلة.. منعتها من بكائها الرفيع.. على فقيدها الغالي.. الجليل، ومن بكاء هذه المرأة.. على «جرو».. ومن ثمّ أقسمت ألاّ تبكي أبداً، وألاّ تسأل نائحة.. ما لها.. وتقول في ذلك:

ـ فأقسمت ألاّ أبكي على هالك..

وأسأل نائحة.. ما لها..

فإن تصبر النفس.. تلقى السرور..

وإن تجزع النفس.. أشقى لها..

* * *

وهكذا.. خلقت «الخنساء».. بفكرها.. موقفاً جديداً.. أو كما يقال: «الإنسان.. كما يفكر.. يكون.. أو أنه ـ بأفكاره ـ يخلق عالمه».

* * *

«الخنساء».. هي شعلة الوفاء.. المحترقة، وعاشقة المجد والنصر، ورمز التضحية والفداء.. كتبت الشعر في كل مجال.. البطولة ـ الفروسية ـ المجد ـ الشهامة ـ والوفاء.. والحب.

* * *

ولم تكن السيدة «عائشة» (رضي الله عنها) إلاّ برافعة رأس أبيها.. حين تقول:

ـ أبي.. وما أبيه..

أبي.. والله.. ما تعطوه الأيدي..

ذلك.. طود منيف.. وفرع مديد.

وقد صارت خطبتها في يده.. في نوعها.. وأتت لها البلاغة.. طائعة.

ولقد رثت السيدة «عائشة» والدها، ومالت حزينة باكية على قبر أبيها ترثيه:

«نضَّر الله.. يا أبت وجهك.. وشكر لك.. صالح سعيك، فلقد كانت للدنيا مُذِلاً.. بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً.. بإقبالك عليها، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله.. رزؤك، وأكبر الأحداث بعده.. فقدك، إن كتاب الله عز وجل.. بالصبر عنك حسن العوض منك.

* * *

ويجدر بنا هنا.. أن نذكر.. موقفاً للسيدة «عائشة» (أم المؤمنين رضي الله عنها):

عندما سألت «الخنساء» عن سبب لبسها الشعار.. وإهلاكها نفسها بالحزن المدمر.. أجابتها بقول: «صخر»، وقالت:

ـ والله.. لا أخلف له ظنه.. ولا أكذب قوله.. ما حييت.

فقالت (أم المؤمنين):

«إن الإسلام قد هدم كل الذي تصفين، ولقد مات رسول الله.. فلم ألبس صداراً».

فقالت لها الشاعرة.. وقد غشيها الألم.. ومست نفسها الشاعرة:

يذكرني طلوع الشمس.. صخراً..
وأذكره.. لكل غروب شمس..
ولولا كثرة الباكين.. من حولي..
على أحزانهم.. لقتلت نفسي..

* * *

وأدب النساء في الجاهلية.. يخبرنا بما كان لهن من شأو بعيد في هذا المضمار.. ففي العصر الجاهلي.. وفي شتى العصور.. عرفت المرأة.. أديبة وناقدة.. وشاعرة. وأن هناك دراً غوالي.. للمرأة..!

ولم يكن شعر الحب فقط هو ما يميز المرأة العربية، بل كان السجع محبّباً إليهن وكذلك النثر، وفي شعر الشجن.. والحزن والعاطفة الحزينة الجياشة، هذه العاطفة التي تمنح الأديب.. الحياة.. وتهبه فيضاً من الحرارة.. والقوة.

ـ وانظر إلى «ولأدة بنت المستكفي» حين تناجي حبيبها «ابن زيدون» وقولها:

«أخاف عليك من نفسي.. ومني..
ومنك.. ومن زمانك.. والمكان..
ولو أني خبأتك.. في عيوني..
إلى يوم القيامة.. ما كفاني..

* * *

إن المرأة.. في كل زمان ومكان، في الجاهلية وفي الإسلام، وفي

العصر الحديث، هي المرأة. حينما.. تشدو بشعر الحب.. فهي تشدو بأغاريد الحنين.. والحنان، تخفق بها نبضات القلب، وتناشد حضناً دافئاً.. وروحاً تسكن مع روحها، وتخبئه في قلبها، وتستكين عليه رموشها.. فهو قطعة منها.. ومن ذات نفسها، حتى إنها تخشى عليه أيضاً من نفسها.. ومن ظنونها.. حبّاً وغيرةٌ عليه.

* * *

وهكذا.. تتواصل الأجيال.. وشاعرات عربيات.. كان الشعر الجميل.. لغتهن، والوفاء النادر شيمتهن.. عشقن المجد.. والبطولة.. والشهامة.. ونادين الحب.. ما بين الخنساء.. وما بين ولأدة بنت المستكفي.. وما بين عائشة التيمورية.. وما بين ميّ زيادة.. حتى نصل إلى شاعرتنا، التي برزت من الجيل المعاصر.. وهي.. «منيرة توفيق».. والتي كتبت أيضاً.. في البطولة.. والثورة.. والشهامة.. والحب، وفي كل مناحي الحياة، وشاركت بشعرها السلس المعبِّر.. الجميل.. في كل مناسبة.. بالتحية.. والوفاء.. والمديح.. والرثاء.

ـ وكان من أعز آمال الشاعرة «منيرة توفيق» أن ترى أشعارها مطبوعة في ديوان يحمل اسمها.. وقد صدر لها هذا الديوان، الذي اقتطف منه قطرات من شعرها الرقراق، وهذا الديوان هو «أنوار منيرة» وقد صدر عن جمعية الشابات المسلمات بالإسكندرية.. وقدمت الإهداء إلى:

«بطل الحرية.. والسلام..

إلى رافع أعلام الفن والأدب..

إلى أمل العروبة.. والإسلام..

إلى رئيسنا المحبوب.. جمال عبد الناصر..

أهدى «أنوار منيرة»..

باقة يانعة من روضة عصره الزاهر..

«الشاعرة.. منيرة توفيق»..

* * *

وتعيش الشاعرة في بطولة بطل الثورة «جمال عبد الناصر» وتحييه:

«جمال.. أنت رفعت الشعب منزلة..
لم يرقها في جلال الدهر.. كبوان..
أنزلته.. منزلاً.. تزهى قواعده..
على أساس له.. الآمال أركان..

* * *

ومن ملحمة «الفجر الجديد» التي كتبتها لبطل الشرق «جمال عبد الناصر».. تزهو فيه.. بمآثره، ومفاخره، وأياديه البيضاء، تصفه بأنه.. «مصطفى كامل» وتنادي بفخر.. ونصر.. لابن مصر..:

«يا كامل.. انفض عنك.. أطباق الثرى..
وانثر غبار القبر.. واشهد ما جرى..
أنت الزعيم الفذ.. والبطل الذي..
غرس الغراس.. وبعد لأي.. أثمرا..
يا مصطفى.. من بعد خمسين مضت..
ناجتك مصر.. لتستعيد وتذكرا..
يا باني الأمل الوطيد.. وباعث الوعي الجديد..
بلغت.. شأواً أكبرا..
لله درّك.. يا جمال.. فأنت..
بالعمل الجليل.. رفعتنا..
حررت وادي النيل من أغلاله..

لما رأيت الشر أصبح منذرا..

عادت لنا ذكرى عرابي عندما..

ضم الصفوف إلى الجهاد.. مشمرا..

* * *

وتستمر هذه القصيدة.. بروح وثّابة.. خفّاقة.. تحكي فيها.. قصة الخديوي.. والإنجليز، وقيام المجاهد (مصطفى كامل) ثم يأتي دور عبد الناصر:

- واليوم.. تسعد مصر..

بالبطل الذي..

صنع الجهاد..

وكان فيه.. مؤزرا..

ظل السلام.. على العروبة.. وارفاً..

من منبع الوادي إلى.. أم القرى..

عاش الرئيس جمال.. للوطن الذي..

أضحى بفضل جهوده.. متحررا..

ورعى الإله.. رجال ثورتنا.. الأولى..

بعثوا رجاء الشرق..

مرفوع الذرى..

* * *

وتهتف.. بمصطفى كامل.. في قصيدة عصماء:

يا مصطفى.. هذي جهودك..

أغرت..

والروض أزهر.. والقطوف دوان..

وهكذا.. تعيش هذه الشاعرة.. بين أمجاد الوطن.. وثوراته.. وبين الحياة العامة، لتشارك بشعرها.. عالم الأدب.. والسياسة، وتتأثر أحاسيسها بكل هذه العوامل.. المتناقضة، فتبعثها شعراً رقيقاً.. يفيض حناناً.. وينبض إنسانية، ويتدفق عذوبة رقراقة هائمة.. في أغاريد.. وأهازيج أتت.. تشتعل عاطفتها بحسب كل ما هو جميل، وكل ما هو عظيم، وفي هذا فإنها تتشبه.. أو تشبه الخنساء.. عاشقة المجد!

* * *

ـ ويقول عنها الناشر الأستاذ محمد محمود زيتون الذي أشرف وقام بطباعة ديوان «أنوار منيرة»، والذي كان يشغل منصب مدير الصحافة والشؤون الثقافية بمحافظة الإسكندرية:

«ومما هو جدير بالذكر.. أن شاعرتنا.. الأديبة.. كانت ذات طراز نادر من أديبات عصرها، فقد غلب عليها اللحن الحزين.. فكثر شعرها في الرثاء، وإن دل هذا على شيء.. فإنما يدل على أن «الوفاء» من أبرز سمات شخصيتها.. المميزة.. لها، فلطالما كتبت تواسي.. وتعزي.. وترثي رجالاً ونساء.. لهم في مجالات البطولة والأدب.. والسياسة.. والمجتمع.. نشاط ملحوظ، وبهذا كان (ديوان أنوار منيرة) سجلاً تاريخياً حافلاً بذكريات غالية، تضفي على عصر الأديبة الشاعرة.. ميزة لم تتوفر لغيرها.. من بنات جنسها، وهي التي نالت الميدالية الذهبية.. مع درجة التفوق الأدبي في مهرجان الشعر والشعراء في القاهرة.. عام ١٩٤٢م.. تقديراً لما فاض به وجدانها.. من شعر رقيق.. كان موضع إعجاب الجميع.

* * *

وكان تحليل الناشر.. مستفيضاً.. يعلن عن روح الشاعرة الخفاقة، وقدم به.. نماذج من شعرها.. الذي انطلق حرّاً من صدرها الملتهب،

جرى على لسان الشاعرة.. ذات القلب النابض بالانفعالات العنيفة من حزن.. وفرح، وما يمتد إليه كل انفعال من أبعاد متنافرة، وكانت هذه الأبيات.. التي انطلقت بها.. في فجيعتها في زوجها.. ثم أحزانها.. وفواجعها المتتالية.. في أشقَّائها.. وما قاسته من هموم.. بمثابة الانطلاقة الشاعرية الأولى في حياة السيدة الثكلى.. الوالهة، التي عرفت حرقة الكبد.. قبل الأوان، وذاقت مرارة العيش.. وهي ما تزال في ريعان الشباب، تنظر إلى طفليها اليتيمين.. اللذين حرما من عطف الأب.. فتتوجع، ثم تحين منها.. التفاتة إلى الشيخ المفجوع في وحيده ـ (الجد) ـ ويزداد لهيب الكمد في صدرها.

وهنا.. أتوقف قليلاً.. لأسجل مشاعر الأنثى الشاعرة.. وعمق أحاسيسها.. لدى الفواجع ونزيف دمائها.. وحرقة كبدها!

* * *

كل الشاعرات سواء.. فهذه هي الشاعرة «عائشة التيمورية» وفجيعتها في ابنتها «توحيدة» كيف عبرت، كيف بكت، كيف هامت وتألمت، وانطلق شعرها.. حارقاً.. ملتهباً.. تنزف منه دماء قلب منفطر، وكانت حياتها مليئة بالأحزان والفواجع.. إذ قضى والدها بعد زواجها.. ثم مات على أثره زوجها، ثم توفيت والدتها.. ولعل هذه المحن.. هي التي ألهبت قلبها حنيناً.. وأوقدت شعلة عواطفها.. تترجمها شعراً.. فاق كل الفواجع والحدود.. عند وفاة ابنتها (توحيدة).

ففي وجيعتها بوالدها.. رثته بقصيدة ملأى بالعبرات والشجن:

«أبتاه.. قد حش الفراق حشاشتي..

هل يرتضي القلب الشغوف جفائي..

يا من بحسن رضاه.. فوز بنوتي..

وعزيز عيشته.. تمام رضائي..

إن ضاق بي.. ذرعي..

إلى من أشتكي..؟!
من بعد فقدك.. كافلاً برضائي..

* * *

أمّا فجيعتها في ابنتها «توحيدة».. التي توفيت وهي في الثامنة عشرة من عمرها، حتى لقد استولى عليها الحزن.. وتركت الشعر والعروض والعلوم.. إلى نحو سبع سنوات.. حتى أصابها رمد عينيها، وأخيراً.. استجابت لقول الناصحين.. وخففت من بكائها.. ونوحها.. حتى شفاها الله من مرض العيون، وجمعت ما عثرت عليه من أشعارها في ديوان باللغة التركية.. أسمته (كشوفة) طبعته في الأستانة، وفي ديوان آخر باللغة العربية أسمته (حلية الطراز) الذي جمعت فيه كل أشعارها.

- ومن المفارقات العجيبة.. ومرض العيون الذي أصاب «عائشة التيمورية»، أصاب أيضاً الشاعرة «منيرة توفيق» وقد كان هذا سبباً كافياً.. لتتخذ من الشعر نجوى للنفس، وصدى للوجدان وسلوان لها عن الهموم.. والأوجاع.

* * *

وكانت «منيرة» تشارك الكل في أحزانهم، وشاركت الأديبة «ميّ زيادة» حزنها.. ووجيعتها في فقد أحبائها...

فحين وفاة والد «ميّ» بكت «منيرة» بدموع سخية.. وأرسلت إليها هذه الأبيات:

«يا ميّ.. خطبك قد أذاب حشاشتي..
وأمرضني.. فأساي.. بعض أساك..
إني أشاطرك الفجيعة.. والأسى..
والحزن من قلمي.. الكسير الشاكي..
أرثي لحزنك.. لا أقول.. تصبَّري..

فلقد يعز الصبر في بلواك..
أرثي لحزنك.. لا أقول.. تجلّدي..
إذ لم تجفف دمعة.. عيناك..
فتقبّلي مني عزاء صديقة..
لا ترتجي إلاّ دوام.. بقاك..

* * *

وإن الروح الشاعرية تصفو.. وتسمو عن كل مشاعر الحقد.. والغيرة، وقد ظهرت أخلاق الشاعرة.. من ترحيبها.. وفرحها.. بعودة «ميّ» إلى مصر، وعند وفاتها.. حرصت الشاعرة «منيرة توفيق».. على تأبين «ميّ» بأشعار دامية، تقطر حزناً وألماً وجيعةً.. بصدق.. ووفاء.. وصفاء نفس رقراقة، تذوب.. وتشارك في الفجيعة الأليمة.. لحبيبة وصديقة.. وزميلة شاعرة مميزة هي «ميّ».

قالت فيها الشاعرة:

«نجم تسامى.. في بهاء الرونق..
غشى الوجود.. بضوئه المتألق..
أضفى على وادي الكنانة.. سحره..
وتألقت.. أنواره.. في المشرق..
يا «ميّ» إنك نجمنا الزاهي.. وقد..
ألقت به.. يد الردى..
يا ميّ.. قد أدمى.. نواك.. قلوبنا..
والدهر.. لا يأسو جراح المشفق..
قد غبت.. غاب الصفو.. عن وادي المنى..
وذوى.. جنى الأدب.. النضير.. المونق..

وكانت الشاعرة «منيرة توفيق».. معجبة كل الإعجاب بـ«ميّ».. وعند عودتها إلى مصر.. بعد غيبة طويلة.. كتبت عنها هذه الأشعار:

- يا كوكباً.. قد غاب عنّا نوره..
واليوم أقبل.. بالضياء المشرق..
مذ غبت. غاب البشر عن وادي المنى..
وطغى على الآداب خلق الموثق..
يا مي.. قد أدمى الفراق قلوبنا..
والدهر.. لا يأسو جراح المرهق..
عودي إلى مصر.. فمصر شاقها..
منك.. الفصاحة.. من جمال المنطق..
عودي.. فقد سعدت.. بعودك أنفس..
باتت تتوق إلى السحاب المغدق..

* * *

ومن العجب أن تمتدح شاعرة.. شاعرة أخرى، وإن دل ذلك على شيء فعلى الروح العالية التي كانت تتمتع بها هذه الشاعرة وعن مشاركتها لبنات جنسها، والإعجاب بهن.. وعلى تطلعها للمجد والعلى.

فعن النهضة النسائية.. كان للشاعرة باع طويل فيها، فقد حيَّت الزعيمة «هدى شعراوي».. بمناسبة نيلها نيشان الكمال:

«هدى.. يا فخر ربات الجمال..
رفعت رؤوسنا.. فوق الرجال..
على دار اتحاد نساء مصر..
ترفّ.. سنا المهابة.. والجلال..

* * *

هدى شعراوي ونيشان الكمال

هدى.. يا فخر ربات الجمال.. رفعت رؤوسنا.. فوق الرجال..

منيرة توفيق

وللاتحاد النسائي في عيده العشرين:

«دار اتحاد.. الغانيات.. الغيد..

عيش الكواعب.. فيك.. جد رغيد..

حققت للجنس اللطيف.. مراده..

من كل فن.. طارف.. وتليد..

وهديت.. ربات الجمال.. إلى العلا..

فرشفت من ينبوعها.. المورود..

يا ليت قاسم.. لم يمت.. ليرى هدى..

والنصر تحت لوائها.. المعقود..

شادت لمصر.. نهضة.. نسوية..

بحجا.. ورأي.. راجح.. وسديد..

لك.. يا هناء القلب بين جوانحي..

حب.. وإجلال.. وصدق عهود..

* * *

- وما أجمل ما سجلته الشاعرة.. في لقاء نجمتين.. تحت عنوان:

نجمتان.. تلتقيان..

«منيرة ثابت»..

و«منيرة توفيق»..

نجمة الشعر.. ونجمة الصحافة..

لأول مرة.. تلتقيان..

في سماء الكنانة..

* * *

«صفت التهاني.. كالسحاب.. رقيقة..

وجلوتها بالماس.. والمرجان..

وجعلتها.. عقداً.. نضيداً.. صافياً..

فبدت تضيء.. على نحور حسان..

وسرى النسيم.. بعطرها.. متضوعاً..

في كل حاضرة.. وكل مكان..

لمنيرة الوجه السني.. تهانئي..

بإيابك الميمون.. للأوطان..

وتقبلي.. أختاه.. مني زهرة..

مزدانة.. بالعطر.. والريحان..

* * *

وهكذا.. كانت الشاعرة.. تشارك.. وتعد.. بفكر.. وقلم.. وإحساس صادق، بمجتمع.. تعيش.. وتحيا فيه.. بنبض روحها.. وكيانها.. وسمو مشاعرها.. ورهافة حسها.. وإنسانيتها الفياضة.

كما أن الشاعرة.. كانت تكتب.. وتعيش الحب.. وأحلامه، تشارك في ذلك الشاعرات اللاتي مارسن كل فنون الشعر والأدب، وإن رقتها في شعر الحب.. لا تضاهيها إلاّ رقة شعر «عائشة التيمورية».. و«ميّ زيادة» و«منيرة توفيق».. فبالرقة والخجل.. كانت الشاعرات يغلفن أشعارهن.. بغلاف رقيق.. من الصفاء.. والنقاء..

فهذه «عائشة التيمورية» تقول:

«أشكو الغرام.. ويشتكي..

جفن.. تعذب.. بالسهر..

يا قلب.. حسبك.. ما جرى..

أحرقت جسمي.. بالشرر..

رام الحبيب لك الضنى..

لم ذا.. وأنت له.. مقر..

لكن.. تعذيب الهوى..

ما للشجى.. منه.. مفر..

* * *

وماذا تقول «ميّ» هذه الأسطورة.. الرقراقة.. أسطورة الحب والألم، فهي في مناجاتها «لجبران» تعيش الحب بخيالها.. وروحها.. وبقلمها، ذلك الحب الذي تشعر به مع الحبيب.. ومن يمثل لها.. هذا الحب.. وكل الحب.

ففي ديوانها «أزاهير حلم» والذي وقّعته باسم «إيزيس كوبيا» وهو الاسم الذي كانت توقّع به.. نتاجها الفرنسي، نجد قصيدة.. تلفت النظر.. للومضات التي توحي.. بشتى التجارب والذكريات العاطفية، ففي قصيدة «دعوني» تقول:

«هنا.. يطيب لنا الحب..

أجل.. يطيب لنا الحب..

بين الأشجار المنعزلة..

والخرائب البائدة..

وما حملت.. من أخبار الزمان..

* * *

وفي قصيدة «ملل»:

«شئت أن أخدع الملل..

منيرة توفيق.. ونجم تسامى

فنهضت..

وأنشدت.. أناشيد حب..

فأحسست شفتي.. تفتر عن..

ضحكة أليمة..

ما عرفت مغزاها..

* * *

هكذا كانت رقة الشاعرات، وهكذا كان خجلهن من الإفضاء بمشاعرهن.

وكانت «منيرة توفيق» تتجاوب مع «ميّ» فكراً.. وروحاً.. وأحاسيس فياضة.. ورقة مشاعر أنثوية.. متماثلة...

تقول «ميّ» لجبران حبيبها البعيد:

ـ أعرف أنك محبوبي، وإني أخاف الحب.. إني أنتظر من الحب كثيراً، فأخاف أن لا يأتيني.. بكل ما أنتظر، كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا؟!.. الحمد لله.. أنني أكتبه على الورق.

كانت أحاسيس الشاعرات ونجوى نفوسهن.. تسكب على الورق، وهكذا سكبت «منيرة توفيق» نجواها لحبيبها.. على الورق.. ولكن في جرأة أكبر، وتصريح أشمل من «ميّ».. إذ تقول «منيرة»:

«حبيب القلب.. ما هذا التجني..

وما ذاك التجافي.. والبعاد..

أبعد القرب.. تجنح للتنائي..

وبعد الصفو.. تلجأ.. للعناد..

رضيت بشقوقي.. وعذاب قلبي..

وذلي.. في غرامك.. في ازدياد..

* * *

وقد هامت الشاعرات بحب صوفي، وكان الملجأ الوحيد لآلامهن وأحزانهن، فلا ننسى أبداً الروح الهائمة.. والأناشيد الصوفية.. والابتهالات الدينية.. وروح الحب الإلهي.. الذي كانت تتميز به.. الشاعرة «عائشة التيمورية» والشاعرة «منيرة توفيق».. فكانت «عائشة» تناجي إلهها.. وتتضرع إليه:

«ربي.. إلهي.. معبودي.. وملتجئي..
إليك أرفع بثي.. وابتهالاتي..
لقد ضرّني.. طعن حسّادي..
وأنت ترى.. سؤالاتي..
يغني عن ظلمي.. وعلمك..
فكيف أشكو لمخلوق.. وقد لجأت..
لك الخلائق.. في يسر.. وشدات..
فيا لها.. من جراح.. كلما اتسعت..
أعيت طبيبي.. رغماً عن مداواتي»..

* * *

ـ كما يتميز شعر «منيرة توفيق» الصوفي.. بعمق الفكر، ففي قصيدتها.. «شعلة الهدى» تتحدث عن حب النبي المصطفى، وتحكي القصة كاملة ـ لمولد الهدى ـ:

للحق.. أني ما فتنت بزائف..
كلا.. ولا سليت فؤادي كوكب..
لكنه.. حب النبي المصطفى..
أنعم به.. حباً.. فمن ذا.. يعتب..
والحمد لله.. الكريم.. على الهدى..
والحمد أجمل ما يقال.. وأعذب..

وكان الحب.. هو ترنيم الشاعرة.. حب المصطفى، وحب الناس، والحب.. للحب، حيث بدأت بالحب.. للحب، ثم الحب للناس، ثم.. الحب السرمدي الإلهي.

وهذا يحدونا إلى أن نعود إلى شعر الهوى.. والوجدان الذي تغنت به «منيرة توفيق» في «أغنية للحب» تقول فيها:

«عن نشوة الحب.. سل كل المحبِّينا..

فللهوى نشوة.. تشجي الخليينا..

وعن شقاء الشوق تناجي:

بُعد الحبيب.. وصدُّه.. أشقاني..

والشوق أجرى الدمع.. كالفيضان..

يا لهف نفسي.. بالجوى.. وعذابه..

يا بؤس عين.. العاشق الولهان..

ويعود الحبيب.. لتناجيه في نهاية القصيدة:

عاد الحبيب.. مواصلاً.. متقطعاً..

بعد النوى.. والصدّ.. والهجران..

* * *

وجدير بالذكر.. أن الأنثى تخجل من إعلان عواطفها، ولكن سمو المعنى.. ورقي الغزل.. في شعرها الغنائي.. يسمو بالألفاظ كما سبق وأشرنا إلى شعرها الغنائي الذي تقول فيه «فيم التجني»:

حبيب القلب.. ما هذا التجني..

وما ذاك التجافي.. والبعاد..

أبعد القرب.. تجنح للتنائي..

وبعد الصفو.. تلجأ للبعاد..

رضيت بشقوتي.. وعذاب قلبي..
وذلي في غرامك.. في ازدياد..

* * *

ولقد مارست الشاعرة كل أفانين الشعر، وهامت في دوحته.. وصدح قلمها.. في تحية.. وفي مديح، وفي فخر وانتشاء، عن شاعر النيل «حافظ إبراهيم».. و«مصطفى صادق الرافعي».. وعن «أم كلثوم».. و«عزيز أباظة».. وغيرهم.

والشاعرة عاشقة للفن ولأم كلثوم، وفي شعر لها تحييها فيه «كوكب الشرق عادت»:

أم كلثوم..
يا زهرة الفن التي ملكت..
سويداء الفؤاد..
بجلالها.. وكمالها..
وبصوتها.. سلس القياد..
صوت رخيم.. رائع..
نغماته.. تسبي العباد..

* * *

وللأدب.. والأدباء وتقدير مواهبهم.. قامت بتسجيل شعر للأديب الكبير «يوسف جوهر» عندما سمعته يقص قصة «لعل لها عذراً» بالإذاعة، وكان أن أعجبتها القصة جداً، فنظمت نفس هذه القصة شعراً بأحداثها، كما أنها قامت بتحية الأديب الكبير.. بالشعر التالي وأرسلته إليه، تقديراً لموهبته القصصية وإلقائه العذب بالإذاعة.. قالت فيها:

إلى الأديب.. يوسف جوهر:

«بوركت يا فخر الشباب..
الناهض.. المتحضر..
قدمت في إلقائك..
الأخاذ.. جو مؤثر..
يا ليت.. أنك للهوى..
قد كنت خير مصوِّر..
ألفاظك السحر الحلال..
رنينها كالمزهر..
وكأنها الشهد المذوب..
في رحيق الكوثر..
دلت على علم.. وآداب..
وفن أوفر..
بعثت روائع شيكسبير..
من قديم الأعصر..

* * *

ـ والحق أن كبار رجالات مصر.. قد حيوا الشاعرة في حينها.. عند صدور هذا الديوان.

فلقد كتب عنها الشاعر الأديب «عبد الغني سلامة» يقول:

«إن الشاعرة «منيرة توفيق».. أبرز مثال للإحساس بالجمال، وإشراق الفكر.. في عصرنا الحديث، لأننا لو عدنا بالذاكرة إلى أكثر من ربع قرن مضى، لم نجد أدب امرأة.. شغل أدبها أذهان قادة الفكر. في سائر الأقطار العربية، كما شغلته شاعرتنا.. بأحداث حياتها.. وتيارات اتجاهات أشعارها.

* * *

كما أن محافظ الإسكندرية (في ذلك الحين) «محمد حمدي عاشور»، والذي كان رئيساً للهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.. قد رحب بهذا الديوان.. وقدم فيه الشاعرة.. بقوله:

«إنه لمن دواعي حسن حظ الإسكندرية أن يكون بين ربوعها ـ سيدة أديبة ـ أوتيت موهبة التعبير عن مشاعرها.. بشعر عربي رصين.. يهز النفس.. ويثري الوجدان، ويوحي بالرضى والارتياح على نحو فريد من فنون القول، اختصت به هذه الأديبة الكبيرة «منيرة توفيق» التي لم تؤت نصيباً من الشهرة، لأنها كانت حتى آخر رمق من حياتها زاهدة في تلك الشهرة، راضية بأنها إذا عبَّرت عن أي خاطر من خواطرها.. كان الصدق رائدها، وروعة الفن.. هدفها الأول.. والأخير.

ولقد كان لأديبتنا السكندرية طابعها المميز.. من عزة النفس.. ورقة الحس.. وإرضاء الفن، لهذا كان ديوانها (أنوار منيرة) صورة من هذا الخلق السامي.. والطراز الفني النادر من الشعر الغنائي.

وقد جمعت السيدة صاحبة الأنوار.. في هذه المجموعة.. من شعرها القديم.. والجديد.. جمعت بين مفاخر النضال الأصيل.. وبين ملاحم الثورة المباركة، فكما أشادت ببطولات «مصطفى كامل» و«سعد زغلول» و«هدى شعراوي» و«ميّ»، انطلقت تنظم ملحمة كاملة.. عن بطل ثورتنا.. وباعث نهضتنا.. «جمال عبد الناصر»، الذي استحق بكل جدارة.. من كل مواطن مخلص أن يدين له بالوفاء.. والتأييد نثراً.. وشعراً.

هذه هي «منيرة توفيق» وهي تعرض لثلاثة عشر عاماً (في ذلك الحين).. من قيام الثورة.. مكان أمجادها، فتأخذ روعة البناء الشامخ.. من إنصاف الفلاح.. والعامل.. والمرأة.. وإحياء للتراث المجيد، الذي نعتز ونفخر بوصفه دعامة من دعائم «القومية العربية».. فتقول شعراً يفيض بالحماسة.. والولاء.. لثورتها.. ثورة الجيش.. وثورة الشعب.. على رواسب الماضي البغيض.. والرجعية.. والتخلف.

وليس عندي شك.. في أن هذا الفيض الدافق من الشعر المتنوع

بالألوان والنغمات، هو الذي يحدونا إلى تخليد ذكرى صاحبة الديوان.. اعترافاً بالفضل لذويه، وتقديراً لكل مواطن آمن بثورته، وأخلص لوطنه وعروبته وأسهم في بناء المستقبل بنصيب.. كل فيما يجيده.. ويتقنه.

وبهذا نكون يداً واحدة.. في مرحلة انطلاقنا.. نحو أهدافنا العليا.

* * *

ـ هذه لمحة خاطفة عن شاعرة.. غاب اسمها من سجل الشاعرات العربيات، ولكن ديوانها «أنوار منيرة» يشهد على وجودها، وتواجدها المبهر في الساحة الأدبية النسائية.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن هذه الشاعرة التي لم يصل ديوانها إلى الجمهور، احتفظت به عائلتها ليكون سجلاً.. لشاعرة هي.. جدة.. لسيدة تتذوق الشعر، وتحتفظ بديوان جدتها (لأمها).. تنير به مكتبتها، هذه السيدة هي حفيدة «منيرة توفيق».. وتسمى «عصمت علام»، والسيدة «عصمت علام» هي زوجة الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس الوزراء الأسبق.. ورئيس مجلس إدارة النادي الثقافي المصري.

ـ ومن هنا تم اكتشاف هذا الديوان، وتم عرضه بصفتي مسئولة النشاط الثقافي بالنادي، والفضل كل الفضل لمن يرعون الثقافة.. ويبرزونها.

* * *